

## الإسلام.. منهج الرشيد



ورد في محتوى حديث لعليٰ "أمير المؤمنين (ع)": "إنَّ الْخَلْقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ عُقْلٍ بِلَا شَهْوَةٍ وَخَلْقَ الْحَيَّانِ مِنْ شَهْوَةٍ بِلَا عُقْلٍ وَخَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ عُقْلٍ وَشَهْوَةً: فَمَنْ غَلَبَ عُقْلَهُ شَهْوَتَهُ صَارَ أَفْضَلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ عُقْلَهُ أَصْبَحَ أَسْفَلَ مِنَ الْحَيَّانِ". إنَّ كُلَّاً مِنَ الْمَلَكَ وَالْحَيَّانِ لَا يَمْلِكُ إِلَّا قُوَّةً وَاحِدَةً. الْأَوَّلُ يَمْلِكُ قُوَّةَ الْعُقْلِ فَقَطْ وَلِذَلِكَ فَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْمَعْصِيَةِ وَالتَّمَرِيدِ وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ يَتَحدَّثُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ فِي الْكَثِيرِ مِنِ الْآيَاتِ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَا يَعْمَلُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَلَا يَفْعَلُونَ مَا يُنْهَا مِنْ مَرْوَنَ) (الْتَّحْرِيمُ/٦)، وَأَمَّا الْحَيَّانُ فَهُوَ يَمْلِكُ قُوَّةَ الشَّهْوَةِ وَهِيَ تَحْكُمُ وَتَسْيِطُ عَلَيْهِ وَتَسْوِقُهُ إِلَى أَغْرِاصِهِ وَأَمْمَّا الْإِنْسَانُ سِيدُ الْمَخْلُوقَاتِ وَخَلِيفَةُ اللَّهِ فَهُوَ يَحْتَضِنُ الْقَوْتَيْنِ مَعًا فِي وَجُودِهِ إِذْنَهُ ذُو قُوَّةٍ ثَنَائِيَّةٍ عُقْلٍ وَشَهْوَةً وَهَا تَانِ الْقَوْتَانِ فِي الْإِنْسَانِ فِي حَالَةٍ صَرَاعٍ مُحْتَدَمٍ فَإِنْ كَانَتِ الْغَلْبَةُ لِلْعُقْلِ وَأَصْبَحَ زَمَانُ أَفْعَالِ وَتَصْرِيفَاتِ الْإِنْسَانِ تَحْتَ قِيَادَتِهِ فَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ سِيَكُونُ أَفْضَلُ وَأَشَرَفُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِأَنَّهُ الْإِنْسَانُ لَمْ يَصُلْ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ حَالَةٌ تَغْلِيبُ الْعُقْلِ عَلَى الشَّهْوَةِ إِلَّا بِالْإِرَادَةِ وَالْإِخْتِيَارِ وَالْمَجَاهِدَةِ الْمُتَوَالِصَةِ بِخَلَافِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا تَجِدُ مَقَاوِمَةً لِلشَّهْوَاتِ وَهِيَ تَمَثِّلُ لَأَوْامِرَ إِلَهِيَّةً هَذِهِ إِذَا عَنِدَتْ كَوْنَ السِّيَادَةِ وَالْقِيَادَةِ لِلْعُقْلِ وَأَمَّا عَنِدَمَا يَكُونُ زَمَانُ الْإِنْسَانِ بِيَدِ الشَّهْوَاتِ وَيَغْدُو فِي تَصْرِيفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ مِنْ قَادِاً لَهَا فَإِذْنَهُ بِذَلِكَ يَصْبِحُ أَسْفَلَ مِنَ الْحَيَّانِ... لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ الْإِنْسَانُ يَمْلِكُ الْقُوَّةَ الثَّانِيَّةَ قُوَّةَ الْعُقْلِ

ويتمكن بها من مواجهة الشهوات وينتصر عليها ولكنه فشل في ذلك فاستحق مرتبة أسفل من مرتبة الحيوان ذي القوة الواحدة قوة الشهوة. إنّ هاتين القوتين المودعتين في طبيعة الإنسان واحتدام الصراع بينهما يجعل الإنسان عرضه للوقوع في الخطأ ومجانبة الطريق المرسوم خصوصاً إذا علمنا بالضعف الذي عليه هذا المخلوق.

إنّ قوة الشهوات والغرائز وتمكن الضعف من داخل الإنسان وشدة الإغراءات من خارجه في الحياة هي التي تجعل الخطأ أمراً مألوفاً في حياة هذا المخلوق، يقول خاتم الأنبياء: "كلّ بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون". إنّ الخطأ الذي يقع فيه الإنسان أو الذنب إنما هو عبارة عن مخالفة للقوانين الإلهية المرسومة بالانقياد وراء الأهواء والرغبات والشهوات ويعد حب الدنيا رأس كلّ خطيئة في الإنسان إنّ الكذب والغيبة والقتل بغير الحقّ والسرقة وسوء الخلق والغناء وأكل السحت وعقوبة الوالدين والزنى وشرب الخمر وغيرها من عشرات الحالات إنّما تشكل خروجاً واضحاً صارخاً عن المرسوم في منهج الله.

إنّ العليم الخبير لم يترك هذا الإنسان سدى بدون منهج لم يتركه لوحده يتخطى في دياجير الظلم ومتأهات الضلال وإنما أوضح له السبيل وأرسل له الرسل وأي خروج على إرادة الله وإرادة رسوله وأي مخالفة لمنهجه تعد ذنباً. إنّ الذنوب التي يرتكبها الإنسان في حياته تتشكل بقعاً سوداء في قلبه حتى إذا ازدادت هذه الذنوب وتراكمت وأصبح بعضها فوق بعض لم يعد الإنسان كما يريده خالقه متناغماً مع أشياء هذا الوجود.

إنّ هذا الوجود سائر ضمن قوانين الله المحددة وعندما يخرج الإنسان بالذنوب على قوانين الله وطاعته فإنّه سوف يعيش الشقاء والتعاسة والضنك والقلق، جاء في الحديث الشريف: "ما من شيء أفسد للقلب من الخطيئة".

إنّ القلب لي الواقع الخطيئة فما يزال به حتى يغلب عليه فيصير أعلى أسلفه" وفي حديث آخر "كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدها لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون"، وعن أمير المؤمنين عليّ (ع): "وايم الله ما كان قوماً في خضم عيش فزار عنهم إلا بذنوب اقترفوها لأنّ الله ليس بطلام للعبيد"، وعن الإمام الباقر (ع): "إنّ الله قضى قضاء حتماً: إلا ينعم على عبد نعمه فيسلبها إياه حتى ثحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النكمة". إنّ الذي يقف وراء أخطاء الإنسان وذنبه وآثامه هي الأهواء ولذلك نجد الإسلام منهج الله الرشيد يحذر من هذه الأهواء وسيطرتها. يقول القرآن العظيم: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ).

رَكَّا هَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ) (الشمس/ 7-10). ويقول: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَزَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى \* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات/ 40-41).

وجاء في أحاديث العترة الطاهرة أحاديث عديدة بهذه الصدد منها: "احذروا أهواكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهواهم وحصائد ألسنتهم". ومنها: "مَنْ أطاع هَوَاهُ أعطى عدوه منه". ومنها: "لَا تدع النَّفْسَ وَهَا هَا فِي رَدَاهَا". ومنها: "إِنْ أطعْتَ هَوَاكَ أَصْمَكَ وَأَعْمَكَ". ومنها: "اتق معاishi إِنْ فِي الْخَلْوَاتِ الشَّاهِدُ هُوَ الْحَاكِمُ". ومنها: "أَشْجَعُ النَّاسَ مَنْ غَلَبَ هَوَاهُ". إنَّ الذُّنُوبَ الَّتِي يَحْذِرُ مِنْهَا مِنْهُ إِنَّهُ هِيَ الذُّنُوبُ بِكُلِّ مَرَاحِلِ صِبْرُورَتِهَا ابْتِدَاءً مِنَ التَّصُورِ وَالرَّغْبَةِ وَإِنْتِهَاءً بِالْمَارِسَةِ وَالْفَعْلِ.

فقد قال أمير المؤمنين (ع): "صيام القلب عن الفكر في الآثام أفضل من صيام البطن عن الطعام". وقال الإمام الجواد (ع): "لا تكن ولية إِنْ في العلانية وعدواً له في السر". وينقل لنا الإمام الصادق (ع) عن رسول الله عيسى (ع) أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "إِنَّ مُوسَى أَمْرَكُمْ أَنْ لَا تَزَنُوا وَأَنَا أَمْرُكُمْ أَنْ لَا تَحْدُثُوا أَنْفُسَكُمْ بِالْزِنَاءِ، إِنَّ مِنْ حَدَثٍ نَفْسَهُ بِالْزِنَاءِ كَانَ كَمَنْ أَوْقَدَ فِي بَيْتِ مَزْوَقٍ فَأَفْسَدَ التَّزاوِيقَ وَالْدُّخَانَ وَإِنْ لَمْ يَحْتَرِقْ الْبَيْتُ". إنَّ الذُّنُوبَ فِي صُورَتِهَا الطَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ قَبْلَ ظُهُورِهَا ذَاتُ خَطَرٍ كَبِيرٌ عَلَى حَيَاةِ الإِنْسَانِ فَرَدَّاً كَانَ أَوْ مُجْتَمِعاً وَقَدْ سَقَطَتْ أَمْمَ عَدِيدَةٍ فِي التَّارِيخِ وَهُوَ إِلَى الْحُضِيرَةِ وَتَرَاجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ بِسَبِيلِ الذُّنُوبِ وَيَحْدُثُنَا أَصْدِقُ الْقَائِلِينَ فِي كِتَابِهِ الْمُبَيِّنِ عَنْ تَلْكَ الْأُمَمِ الْبَائِدَةِ فَيَقُولُ: (أَهْلَكَنَّاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) (الْدُّخَانُ/ 37). ويَقُولُ: (كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكَنَّاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) (الْأَنْفَالُ/ 54).

وإذا كانت الذُّنُوبُ بهذه المثابه من الخطورة على حياة الفرد والأُمَّةِ لزِمت التَّوْبَةِ لإِعَادَةِ الإِنْسَانِ الحائِدِ الزَّائِعِ إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ لِيَنْسُجِمْ مَعَ أَشْيَاءِ هَذَا الْكَوْنِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ لِيَنْعُمُ بِالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالْيُسُرِ وَلَهُذَا شَجَعَ مِنْهُ إِنَّ التَّوْبَةَ لِمُعَالَجَةِ مَا يَنْجُمُ عَنِ الذُّنُوبِ مِنْ آثَارٍ وَخِيمَةٍ فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِهِ (يَأَيُّهَا أَيُّهَا الْمُنْذَنُونَ أَسْرَرْفُوا عَلَيْيَ أَزْفُسْهُمْ لَا تَقْنَطُوا مَنْ رَحْمَةَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53).

وجاء في أحاديث العترة الطاهرة: "كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءُ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ"، وَيَشْتَدُ هَذَا التَّشْجِيعُ وَالْحِثُّ لِلْعُودَةِ وَالتَّوْبَةِ إِلَى إِنَّ فِي الْفَرَصَةِ الْذَّهَبِيَّةِ الْمُمْتَازَةِ شَهْرَ رَمَضَانَ حِيثُ يَقُولُ الرَّسُولُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ (ص) فِي خُطْبَتِهِ التَّارِيخِيَّةِ: "وَتَوَبُوا إِلَى إِنَّ مِنْ ذُنُوبِكُمْ.. إِنَّ الشَّقِيقَ مَنْ حَرَّمَ غُفرانَ

أَنْ فِي هَذَا الْشَّهْرِ الْعَظِيمِ".